بسم الله الرحمن الرحيم

تفريغ محاضرة

وقفات مع سورة آل عمران

للشيخ : صالح بن عواد المغامسي

" السلام عليكم ورحمة الله وبركاته"

الحمد لله الذي لا يبلغ منحته قول قائل ولا يجزي بآلائه أحد،
وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ولا رب غيره ولا إله

سواه وسع الخلائق خيره ولم يسع الناس غيره وأشهد أن سيدنا ونبينا محمد عبده ورسوله بلغ عن الله رسالته ونصح له في برياته فجزاه الله بأفضل ما جزا به نبي عن أمته صلى الله وملائكته والصالحون من خلقه عليه كما وحد الله وعرف به ودعا إليه ..

أما بعد أيها المباركون :

فإن الرب تبارك وتعالى تعبدنا بهذا القرآن العظيم فهو معجزة نبينا صلوات الله وسلامه عليه الخالدة إلى أبد الدهر:

جاء نبينا بالآيات فانصرمت وجئتنا بحكيم غير منصرم

آياته كلما طال المدى جـــدد يزيدهن جلال العتق والقدم

ألا وإن مما صح عنه □ أنه قال :" اقرءوا الزهراوين البقرة وآل عمران " وبهذا المسجد المبارك نقف معكم تأملات مع سورة آل عمران ، وهي سورة مدنية ، قال ربنا تبارك وتعالى في أولها : بسم الله الرحمن الرحيم{ □□□□□□□□□ □□□□ □□□□ □□□□□□□ □□ □□□□ □□□ □□□□□ □□□ □□□□□□□□□□□□ } وهذه الحروف المتقطعة اختلف العلماء فيها اختلافاً كثيراً لكن الذي يعنينا هنا أن يعلم أن الله جل وعلا افتتح سور القرآن بعشر طرائق :

*إما أن تبدأ السورة بالحروف المتقطعة كما في البقرة وآل عمران ومريم .. وأشباهها .

* وإما أن تبدأ السورة بالاستفهام قال ربنا { هل آتى على الإنسان حين من الدهر } وقال جل ذكره { هل أتاك حديث الغاشية } .

* وإما أن تبدأ السورة بالجملة الخبرية قال ربنا { أتى أمر الله فلا تستعجلوه }وقال { اقترب للناس حسابهم وهم في غفلة معرضون }

*وإما أن يأتي للنداء قال تباركت أسمائه وجل ثنائه { يا أيها الناس اتقوا ربكم } وقال { يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود } وقال جل ذكره { يا أيها النبي اتق الله} .

* وما أن تبدأ الآية بالتعليم وهذا لم يرد إلا في موضع واحد قال الله جل وعلا { لإيلاف قريش }.

* وإما أن تبدأ السورة بالدعاء قال تباركت أسمائه { ويلٌ للمطففين } وقال { تبت يدا أبي لهب وتب} وهذا كله دعاء .

هذا بعض ما دل في القرآن على أنه قد افتتح به ومن ذلك :

*الثناء على الله جل وعلا وهو على ضربين عند العلماء : إما الثناء على الله جل وعلا بما أنعم وهذا ما ذكره الله جل وعلا في الفاتحة { الحمد لله رب العالمين } وبالأنعام { الحمد لله الذي خلق

السموات والأرض} وبالكهف { الحمد لله الذي أنزل على عبد الكتاب } .

وإما أن يأتي الثناء بالضرب الثاني : وهو تنزيه الله جل وعلا عمالا يليق به قال جل وعلا { سبح اسم ربك الأعلى } وقال { سبح لله ما في السموات وما في الأرض } وقال { يسبح لله ما في السموات وما في الأرض } .. إلى غير ذلك من السور المفتتحة بالتسبيح .

هذا أولا حول مقدمة سورة آل عمران ..

ثم قال ربنا تباركت أسمائه وجل ثنائه { [illegible] [illegible] } القرآن أيها المؤمن كله عظيم لكن عظمته على ضربين : * ضرب أعلى وهو حديث الله عن الله .

- والضرب الآخر هو الكلام عن غير الرب تبارك وتعالى ، فأعظم ما في القرآن حديث الله تبارك وتعالى عن ذاته العلية من الآيات التي تُعرف بالخالق الباري جل شأنه ومن هنا قال الله جل وعلا { [illegible] }

فنقول أيها المؤمنون أما لفظ الجلالة فإن الأظهر من دلائل القرآن والسنة أنه هو اسم الله الأعظم الذي إذا دعي به أجاب وإذا سُئل به أعطى لقرائن عده من أجلها أمران :

- أن غير هذا الاسم يضاف إليه هذا الاسم فلا يُعرف إلا به فلا يقال إن من أسماء الرحمن الرحيم العلي الكبير الله ، لكن يقال من أسماء الله الرحمن الرحيم العلي الكبير ، هذه قرينة .
- والقرينة الثانية : أن لفظ الجلالة الله لم يأذن الله شرعاً ولا قدراً أن يتلبس به أحد وأن يقول إنني أنا الله ، حتى فرعون وهو أعتا الجبابرة قال { أنا ربكم الأعلى } والنمرود قال{ أنا أحي وأميت } وقريش سمت هبل واللات والعزى لكن لم تسمي الله ، فصرف الله جل وعلا عن التسمية باسمه كذباً حتى الجبابرة والأكاسرة والقياصرة عبر التاريخ قال الله جل وعلا في سورة مريم { وما نتنزل إلا بإذن ربك له ما بين أيدينا وما خلفنا وما بين ذلك وما كان ربك نسيا، رب السموات والأرض وما بينهما فاعبده واصطبر لعبادته هل تعلم له سمياً } أي ليس هناك أحد تسمى بهذا الاسم فهذان قرينتان من الدلائل ـ والعلم عند الله ـ ولا نجزم على أن لفظ الجلالة هو اسم الله الأعظم الذي إذا دعي به أجاب وإذا سُئل به أعطى ، كما أن الألف واللام

فيه ثابتة فإننا إذا دعونا ربنا ومن أسمائه الرحمن نقول يا رحمن ومن أسمائه الغفور لكننا نقول يا غفور من أسمائه الصبور ونقول يا صبور لكننا إذا ناديناه جل وعلا دعوناه باسم الجلالة فإن الألف واللام باقية فيه فيقال يا الله ، هذه بعض القرائن حول اسم الله الأعظم ، ثم قال ربنا جل وعلا { [illegible] } والرب تبارك وتعالى من أسمائه الحسنى " الحي " وحياة الله جل وعلا توصف بأنها حياة لم يسبقها عدم ولا يلحقها زوال وكل أحد كائن من كان قد سبق حياته عدم وسيلحق حياته زوال { كل من عليها فان ،ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام} فالله جل وعلا وحده الحي الذي لا يموت " القيوم" أي أن جميع خلقة بلا استثناء فقراء إليه فقر اضطرار وهو جل وعلا غني عن كل أحد ، بل إنه جل وعلا مستوٍ على عرشه والله جل وعلا مستغنٍ عن العرش وعن حملة العرش وعمن يطوف حول العرش ، لكن العرش وحملة العرش ومن يطوف حول العرش والخلائق أجمعون كلهم فقراء كل الفقر إلى ربهم تبارك وتعالى فهذا معنى قوله جل شأنه { [illegible] } .

والله تبارك وتعالى هذان اسمان عظيمان من أسمائه الحسنى لكن له جل وعلا أسماء حسنى قال [illegible] عنهن:" مئة إلا واحدة من أحصاهن دخل الجنة " وسمى الله جل وعلا ونعت أسمائه بأنها حسنى بأربعة مواضع من كتابه :

قال جل وعلا في الأعراف { ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها}

وقال تباركت أسمائه وجل ثنائه في الإسراء { قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أيّاً ما تدعون فله الأسماء الحسنى }.

وقال جل ذكره وتبارك اسمه في سورة طه { الله لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى }

وقال جل ذكره في خاتمة الحشر { هو الله الخالق البارئ المصور له الأسماء الحسنى }

فله جل وعلا أسماء حسنى وصفات علا فيها يتعبد ويدعى ـ جعلنا الله وإياكم ممن يتعبده بما شرع ـ جل ذكره .

{ [illegible] [illegible]} المقصود به القرآن بلا شك ثم ذكر الله جل وعلا إنزال التوراة والإنجيل ولكنه لم يذكر على من أنزلت قال{ [illegible] [illegible] } لأن شيوع أنها أنزلت على موسى ـ أي التوراة ـ والإنجيل على عيسى أمر لم يختلف فيه أحد

فلم يذكر الله جل وعلا هنا على من أنزلت التوراة وعلى من أنزلت الإنجيل وإن كان العلماء يفرقون بينهما أن التوراة يقول بعض أهل العلم : أن الله جل وعلا كتبها بيده وهذا ظاهر القرآن قال جل ذكره { وكتبنا له فيها من كل شيء } في خبر التوراة عن موسى عليه السلام ، أما الإنجيل فالمشهور أنه منزل تنزيل مثله سائر الكتب ، والمقصود من ذلك كله أن الله جل وعلا هو الذي أنزل هذه الكتب على أولئك الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، هذا ما يتعلق بفاتحة السورة .

ثم قال ربنا تبارك وتعالى { [illegible] } ثم قال جل ذكره والصواب جعل الواو عاطفة جملة على جملة أو استئنافية لكنها تُعطف على لفظ الجلالة فيقال : والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا قال [illegible] " ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله " وهذه القلوب لا يمكن أن تنهل من معين أعظم من القرآن .. الله لما ذكر قرآنه العظيم أخبر أن منه آيات محكمة وآيات متشابهة ، فالمحكم ما لا يقبل إلا تأويل واحد الظاهر البين .

والمتشابه : ما يقبل عدة تأويلات ، ولما كان الإيمان قائما على التصديق جعل الله جل وعلا في القرآن آيات متشابهات ليبتلينا الرب تبارك وتعالى هل نأتي إلى المحكم فنعمل به وللمتشابه فنرده للمحكم ونؤمن به أم يصبح أن الإنسان إذا راء المتشابه دخل في قلبه الزيغ ورد المحكم وهذا ما صنعته النصارى فإن الله قال في كتابه العظيم عن عبده عيسى ابن مريم {وكلمته ألقاها إلى مريم وروحاً منه } وقام مصدقاً بكلمة من الله عن يحيى فهذا من متشابه القرآن الذي تعلقت به النصارى وقالوا إن القرآن يقول : إن عيسى ابن الله ، لأن القرآن كلام الله والله جل وعلا قال عن يحيى { ومصدقاً بكلمة منه} والكلمة هو عيسى ، لكن هذا المتشابه إنما يقع عنده أهل الزيغ لأنهم لو ردوه للمحكم فإن الله قال عن عيسى ابن مريم { إن هو إلا عبد أنعمنا عليه} فهذه آية محكمة تبين أن عيسى ابن مريم ما زاد على كونه عبداً أنعم الله جل وعلا عليه لأن آل عمران سورة نزلت أولاً وأعظم الأمر في الرد على نصارى نجران عندما وفدوا على النبي [illegible] ثم قال ربنا { [illegible] } محكماً ومتشابهاً { [illegible] } المحكم والمتشابه والرسوخ

في العلم له أربعة قرائن لمن أراد أن يعرف من الراسخون في العلم ؟

الرسوخ في العلم له أربع قرائن أولها: أن يتعامل مع ربه جل وعلا بالتقوى .

وأن يتعامل العبد مع الناس بالتواضع .

وأن يتعامل مع الدنيا بالزهد فيها .

وأن يتعامل مع النفس بالمجاهدة.

فإذا نفذ عبد ما بينه وبين الله التقوى وما بينه وبين الناس التواضع وما بينه وبين الدنيا الزهد وما بينه وبين نفسه المجاهدة حق له من رزق علماً أن يقال عنه أنه من الراسخين في العلم ، قال ربنا { [illegible] } ثم قال الله{ [illegible] } هذا من لطف الله جل وعلا بعباده لأن هذه الآية جمعت أمرين جمعت التلقين والوصف وهذا من أجل الدلائل على كرم الله أنه يعطي العطية ويمدح عليها ، فالله جل وعلا يقول { [illegible] } وجعل هذا القول والذكر والدعاء منقبة وهو في حقيقة الأمر أن الله جل وعلا يعلمنا كيف ندعوه فأثنى علينا جل وعلا على الصالحين من عباده بما علمهم إياه ونظير هذا في القرآن أن الله جل وعلا ابتلى أيوب عبده بالبلاء فمكث أيوب في البلاء ثمانية عشر عاماً فعلم الله أيوب أن يصبر ورزقه في قلبه الصبر ثم مدحه الله جل وعلا على شيء أعطاه الله إياه ولا يقدر على هذا إلا الله ولا يفعله إلا الكريم ، الكريم وهو الله لأن صفات المخلوقين لا يمكن بحال أن تصل إلى صفات الخالق فالله جل وعلا { ليس كمثله شيء وهو السميع البصير } فلما أعطى أيوب الصبر مدح أيوب على صبره قال في خاتمة الحديث عنه { إنا وجدناه صابراً نعم العبد إنه أواب } وهنا يقول جل ذكره يعلم عباده كيف يدعوه قال { [illegible] } .

ثم من آيات آل عمران أن الله قال { [illegible] }

الله جل وعلا خالق الخير والشر لكنه ذكر الخير هنا وحده ليعلمنا الله جل وعلا الأدب في الخطاب معه ليُعلم عباده الأدب في الخطاب معه { [illegible] } والملك الموجود في الدنيا اليوم ملك صوري مهما بلغ ، لأن الملك قسمان : ملك حقيقي ، وملك صوري .

والملك الحقيقي لا يكون إلا لله ، أما غير الله جل وعلا ممن ملكه الله سواء قلنا الملك المعروف وهو الحكم أو قلنا ما دون ذلك ما يملكه الناس من أموال وعقارات علت أو دنت فهذا كله ملك صوري فما من أحد حكم أم ملك أو ترأس إلا نزع منه ملكه أو مات هو عن ملكه ولهذا بعض خلفاء بني العباس لما أجبر على ترك الخلافة وضع خده على الأرض وقال : " اللهم يا من لا يزول ملكه ارحم من زال ملكه " فكل أحد يملك شيء من الدنيا ـ عقارات أو أموال ـ يملكها ملكه لها ملك صوري إما أن تتركه أو يتركها فإذا كان يوم القيامة وحشر الناس حفاة عراة غرلاً بهما زال الملك الصوري أما الملك الحقيقي فلم يكون موجوداً أصلاً فيحشر الملوك والأغنياء والأثرياء وكل من كان يملك في الدنيا ولو حبة خردل يحشر وليس معه شيء فانتفى بذلك الملك الصوري فلم يبقى إلا الملك الحقيقي ولهذا قال الله جل وعلا { لمن الملك اليوم لله الواحد القهار } وهذه ليست إلا لنفي الملك الصوري وإلا حتى الملك اليوم الآن قبل يوم القيامة الملك لله ، والله جل وعلا يقول في خاتمة الانفطار{ والأمر يومئذ لله } حتى اليوم الأمر لله لكن المقصود الأمر الصوري ، والملك الصوري ينتهي فلا يبقى إلا الملك الحقيقي والملك الحقيقي قد بينا أنه لربك تبارك وتعالى وحده دون سواه فملوك الدنيا من فوارق ملكهم عن ملك ربهم أنهم إن أعطوا نقص ما بأيديهم وقل ما في خزائنهم ، أما ربنا جل وعلا فيعطي ولا ينقص من ملكه شيء " يا عبادي لو أن أولكم وآخركم و إنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحداً فسألوني فأعطيت كل ذي سئل مسألته ما نقص ذلك من ملكي شيئا إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر " هذا ما ذكره الله جل وعلا حول آية الملك .

ثم قال ربنا جل وعلا في السورة هذه قال { [illegible] } سميت السورة باسم أهل بيت صالح لأن السورة كما حررنا نزلت في الرد على نصارى نجران ، والقرآن عظيم في دعوته فبدأ الله جل وعلا قبل أن يثبت أن عيسى عبد ، بدأ الله جل وعلا بالثناء على أهل بيت يعظمه النصارى حتى يبين الله جل وعلا

لهم أن المقصود الهداية في المقام الأول فقال ربنا { □□□□ □□□□
□□□□□□□□□□□ } أي اجتبى واختار { □□□□□□□□□□□□ □□□□□□□ □□□□□□□□ □□□□□□
□□□□□□□□□□□□□□□ □□□□□ □□□□□□□□□ □□□□□□□ } ، أما آدم فهو أبو البشر وقد نسبنا ربنا إليه { يا بني آدم } وخاطبنا في القرآن بهذه النسبة وقد أعطاه الله جل وعلا خصائص لم يعطها أحد من الخلق ، وهو أن الرب تبارك وتعالى خلق آدم بيده وهذا لم يقع لأحد من البشر واسجد له ملائكته ونفخ فيه من روحه وعلمه الأسماء كلها ، فهذه أربع خصائص كانت لآدم ولم تكن لغيرة ، والنبي □ سئل : هل كان آدم نبياً ؟ قال :" نعم كان نبياً مكلما أدخل الجنة "

وأصول الخطايا ثلاثة : الكبر والحسد والحرص ، فجاءه إبليس من باب الحرص قال { هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى } فغلبه من جهة الحرص فأكل من الشجرة كما أخبر الله ثم إن الله جل وعلا لحكمته وبقدرته أهبطه إلى الأرض ثم تاب عليه لما تاب عليه جل وعلا اصطفاه بعد أن منّ عليه بتعليمه كيف يتوب قال الله { فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه } ولم يقل الله في البقرة ما هي الكلمات لكنه قالها جل شأنه لها في الأعراف { قال ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين }

وأما نوح عليه السلام فهو أول رسل الله إلى الأرض وقد سماه الله جل وعلا في القرآن عبداً شكوراً { ذرية من حملنا مع نوح إنه كان عبداً شكوراً } .

قال الله { □□□□□□□□□□□□ □□□□□□□ □□□□□□□□ □□□□□□□ □□□□□□□□□□ □□□□ □□□□
} فأما إبراهيم فهو خليل الله تبارك وتعالى نسب الله الملة إليه ملة أبيكم إبراهيم ، قدم جسده للنيران وقدم ولده للقربان وقدم ماله للضيفان وقدم قلبه للرحمن فهو أكمل الخلق بعد نبينا □

أعطاه الله جل وعلا رقة قلب { قال رب إنهن أضللن كثيراً من الناس فمن تبعني فإنه منى ومن عصاني فإنك غفور رحيم } وهذا كله استطراد لكن قال الله جل وعلا بعدها { □□□□□ □□□□□□□□□ □□□□□□□
□□□□□□□□□□□□□□ } فهذه بيوت زكاها الله جل وعلا بالإيمان والعمل لصالح ورفع درجاتها بما منحهم من عطاء وفيض إلهي من لدنه جل ذكره ثم كما قلنا في الأول أثنى عليهم بما أعطاهم قال { □□□□ □□□□
□□□□□ □□□□□□□□□ □□□□□□□ □□□□□□□□□□□□ □□□□□□□ □□□□□□□□ □□□□□□□ □□□□□□□□□□
□ □□□□□□ □□□□ □□□□□□□□□ □□□□□□□□□ □□□□ □□□□□□□□□□□□□□ }.

ثم ذكر الله جل وعلا خبر مريم وهو خبر شائع ذائع لا يحتاج إلى تفصيل لكننا سنقف عنده عند حالين ، الحال الأولى : أن أم مريم لما حنت للحمل كان الدافع لها أن تسأل الله أن تحمل هو أن يكون

مثلها مثل قريناتها وتريد أن ترزق ولداً تريد أن ترزق أحد تستأنس به هذه البغية وهي بغية شرعية طبيعية كل النساء يفعلها وكل الأباء، فلما حملت وتحقق المنشود تغير الحال فلم تعد تريد الولد للاستئناس ولم تعد تريد الولد لئن يخدمها إذا كبرت فقالت { [illegible] } أي حظي من هذا الحمل لا أريده وإنما أريد من هذا الحمل أن يقع خادماً في المسجد لله أما أنا حظي منه لا أريده وهذه منزلة عالية جداً لا يكلف ولا يطالب بها كل أحد وإلا لو كان الأمر عادياً ما أثنى الله جل وعلا على آل عمران وأتى بأعظم سور القرآن وسماها بآل عمران هذه الحالة الأولى .

فلما حملت ووضعت غاب عن خلدها أنه يمكن أن يكون الحمل أنثى لكنها لأنها نذرت ذلك لله كنت تتفق مع شعورها وأملها وغايتها { [illegible] }فهي تعلم يقيناً أن المرأة والفتاة لن تقوم بالأمر كما يقوم به الرجل فلما فقدت الأمر الذي ليس بيدها وهو كونه ذكر أو أنثى لجئت إلى الأمر الذي بيدها تقرباً إلى الله قالت { [illegible] } ومعنى مريم بلغتهم " خادمة الرب" فهي لما فاتها الولد فاتها الذكر وعجزت عنه وهذا ليس بمقدورها لجئت للشيء الذي من مقدورها فأسمته مريم تقرباً إلى الله وهذه منزلة عالية في الصلاح { [illegible] } ثم أن مريم هذه نشأت تنشئة صالحة كما لا يخفى فكفلها عبد يقال له زكريا من خيار بني إسرائيل نبي مرسل بنص القرآن هذا النبي المرسل كان مسئولاً عنها قيماً عليها فهو الذي يأتيها بالطعام لكنه كان يفاجأ أنه يجد عندها طعاماً لم يأتي به فقول بعض المفسرين أنه يوجد عندها طعام الصيف في الشتاء وطعام الشتاء في الصيف هذا لا يقبل لا عقلاً ولا نقلاً لأن الفاكهة في غير زمنها لا تجدي ولا تنفع ولا يصبح لها منقبة وهذا لا يعني زكريا في شيء لكن الذي أذهل زكريا أنه هو القيم فكان ينظر من باب أنه تكفل بها دون بني إسرائيل فخاف عليها أن يكون أحداً قد تسلط عليها وتولى أمرها فهو المسئول عن إطعامها فيجد عندها طعاماً لم يأتي به فحتى يقطع الطريق على الشيطان من أين أتى لها هذا الطعام ؟ واجهها بالأمر { [illegible] } تبقى قضية هنا وهو أن الله جل وعلا قال لمريم بعد أن حملت بعيسى ووضعت { قال وهزي إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطب جنياً }فأمرها جل وعلا أن تهز جذع

النخلة مع أنه جل وعلا وهي في محرابها كان الطعام يأتيها من غير حراك منها ومن غير سعي في الرزق لأن مريم في المرة الأخيرة ـ في الثانية ـ وهي مع ولدها كانت تحمل هم الولد فدخل في قلبها شيء مشروع من الحياة الدنيا أما عندما كانت في المحراب لم يكن الدنيا تخطر لها على بال لم يكن أمامها إلا ذكر الله فكان الرزق يساق إليها سوقاً وهذا فضل الله يؤتيه من يشاء قال الله جل وعلا بعدها {

} هذا ما يتعلق باصطفاء الله جل وعلا لبيت آل عمران ، بعد ذلك قال الله جل وعلا {

} قالت لها الملائكة ا سمه المسيح عيس ابن مريم ففهمت عليها السلام أنه محال أن يكون من زوج لأنه لو سيكون عيسى من زوج لما قالت لها الملائكة عيسى ابن مريم فلما جاءها الملك {

} ولم تتوقع أن يأتي من زوج ولم تفهم من الخطاب الملائكي أنها ستتزوج لأن الملائكة نسبت عيسى إليها ولم تنسبه إلى أب {

}أما أمران عظيمان تفرد الله جل وعلا وحده بهما : الخلق والرزق فلا أحد يخلق إلا الله ولا أحد يرزق إلا الله وقد جمعهما الله في آية واحدة قال الله { يا أيها الناس اذكروا نعمت الله عليكم هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء والأرض } فهذه آية في طريق الاستفهام الإنكاري أي لأحد يخلق غيره ولا أحد يرزق غيره { ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة في قرار مكين ثم خلقنا النطفة علقة فخلقناالعلقة مضغة فجعلنا المضغة عظاماً } ثم قال الله جل وعلا { فكسونا العظام لحما ثم أنشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين } فلا أحد يخلق غيره وبما أنه لا أحد يخلق غيره لا أحد يرزق غيره { أمن هذا الذي هو جند لكم ينصركم من دون الرحمن إن الكافرون إلا في غرور ، أمن هذا الذي يرزقكم إن أمسك رزقه بل لجو في عتو ونفور } وقال جل شأنه { وما من دابة إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها } { وكأين من

دابة لا تحمل رزقها الله يرزقها وإياكم } فلا أحد يخلق غيره ولا أحد يرزق غيره وما دام لا أحد يخلق غيره ولا أحد يرزق غيره وجب ألا يعبد غيره جل شأنه ، هنا قال الله جل وعلا { [illegible] } وكل من عرف الله حقاً لا يمكن لقلبه أن يتعلق بأحد غير الله وهذا هو ما يمتاز به أهل التقوى ـ جعلني الله وإياكم منهم إن من عرف الله لا يمكن أن يركن إلى غيره ولا يمكن أن يلجئ إلى غيره ولا يمكن أن يقنط من رحمة ربه قال الله جل وعلا { [illegible] } فخلق عيسى عليه السلام من أم من غير أب وخُلقت حواء من ضلع آدم لم تتدخل في خلقها أنثى وخلق سائر الناس من ذكر وأنثى وخلق آدم من غير ذكر ولا أنثى خلقه الله جل وعلا بيده فجاءت الأمور الأربعة المتصورة بقضية الخلق ولله الأمر من قبل ومن بعد يحكم ما يشاء ويفعل ما يريد

قال الله جل وعلا في سورة آل عمران{ [illegible] } من باب العلم التاريخي اختلف من الذي بنا الكعبة أولاً والذي يظهر والعلم عند الله ويجتمع فيه النصوص ولا تتعارض أن أول من بنا الكعبة الملائكة بنتها لآدم لأننا لو قلنا أن خليل الله إبراهيم عليه السلام هو أول من بنا الكعبة أي أن الكعبة لم تكن قبله ليُحدث ذلك إشكالا كبيراً لا جواب عليه وهو أنه يعني بالضرورة أن الأنبياء لم تكن تحج قبل إبراهيم وأن الحج لم يكن يعرف في الأنبياء إلا بعد إبراهيم وهذا بعيد جداً وقد دلت آثار على أن أنبياء الله جل وعلا حجوا إلى البيت قبل خليل الله إبراهيم فيظهر والعلم عند الله أن إبراهيم هو الذي رفع القواعد قال الله في البقرة { وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منا}

سنذكر بعض الفوائد تاريخياً في الأمر : الجزاء من جنس العمل هذا نص القرآن { وجزاء سيئة سيئة مثلها } { هل جزاء الإحسان إلا الإحسان } وإبراهيم رفع القواعد من البيت مع ابنه إسماعيل فرآه نبينا [illegible] في ليلة المعراج قد جعل أسند ظهره إلى البيت المعمور صلوات الله وسلامه عليهما ، وعلى المؤمن أن يعلم أن التجارة مع الله رابحة بكل المقاييس " يا ابن آدم اعمل ما شئت فإنك ملاقيه وأحبب من شئت فإنك مفارقه وكن كما شئت فكما تدين تدان" فإبراهيم هو الذي رفع القواعد وهو أفضل الخلق بعد

نبينا □ هذا البيت بناه خليل الله إبراهيم ثم قذف الله في قلوب العباد تعظيم البيت وهيبته حتى آل الأمر إلى أن نبينا □ ودخل مكة عام الفتح فأمر بالأصنام أن تخرج فوجد فيها صورة لإبراهيم وإسماعيل يستقسمان بالأزلام فقال عليه السلام "قاتلهم الله مال شيخنا وما للأزلام "، قبل فتح مكة أراد النبي □ يوماً أن يدخل البيت وسدانة البيت في بيت عثمان بن أبي طلحة فنهاه عثمان ومنع النبي عليه السلام أن يدخل الكعبة فقال له عليه الصلاة والسلام :" كيف بك إذا كان المفتاح بيدي أضعه حيث أشاء " فقال عثمان : إذاً ذلت قريش وهانت يومئذ ، فلما دخل النبي □ مكة يوم الفتح بعد أن أخرج ما فيها من أصنام صلى في البيت ركعتين ثم قبل أن يخرج من البيت وهو آخذ بعضدتي الباب أنزل الله جل وعلا عليه قوله { إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها }
فاستقبله علي ـ رضي الله عنه وارضاه ـ فقال : يا نبي الله اجمع لنا السدانة مع السقاية وكانت السقاية في بني عبد المطلب فعمل □ بالآية وقال أين عثمان بن أبي طلحة فأتاه عثمان فأعطاه النبي □ مفتاح الكعبة وقال :" خذوها بني شيبة خالدة تالدة لا ينزعها منكم إلا ظالم " فهي إلى اليوم سدانة البيت في بني شيبة لأنه لا أحد يجرؤ أي أحد يؤمر على مكة لا الأمويون ولا العباسيون ولا العثمانيون ولا الدولة المباركة اليوم على نزع المفتاح من أصحابه لأن النبي □ قال :" لا ينزعها منكم إلا ظالم " البيت أمر الله جل وعلا بالحج إليه ولم يأمر الله بأن يقصد بيتاً للحج إلا الكعبة من هنا أخذ جماهير العلماء على أن مكة أفضل من المدينة وذهب بعض العلماء وهو المشهور عند المالكية إلى أن المدينة أفضل من مكة فأما أدلة القائلين بأن مكة أفضل فظاهرة لوجود الكعبة والله يقول { وليطوفوا بالبيت العتيق } ولأن الله لم يأذن لبيت أن يحج ويقصد إلا بيته ولأن الصلاة في المسجد الحرام بمئة ألف صلاة .
أما الذين قالوا إن المدينة أفضل فحججهم ما بين مقبولة وبين راجحة عندي ـ والعلم عند الله ـ وأعظم الأدلة على أن المدينة أفضل أن الله جل وعلا اختارها لئن يموت فيها رسوله□ فلزومه عليه السلام المدينة فيما بقي من عمره مع علمه عليه السلام أن مكة فتحت وهو الذي فتحها وأن الدافع من الخروج منها قد زال بدخول أهلها في الإسلام وأصبحت تحت إمرته عليه السلام فمع ذلك مكث فيها بمقدار ما يصلح أحوالها وجعل عليها " عتاب بن أسيد" فلما حج مع صبيحة فجر الرابع عشر عاد قافلاً إلى المدينة ، ومعلوم أن الأنبياء عليهم السلام يدفنون حيث يموتون ويخيرون عند

الموت فرضي أن يبقى في المدينة حتى وفاته ودفن فيها فهذه من أعظم أدلة من قال إن المدينة أفضل من مكة ، ولهم دليل يسمى دليلاً مركبا وهو أن النبي قال :" لموضع سوط أحدكم في الجنة خير من الدنيا وما فيها " موضع السوط خير من الدنيا وما فيها ، قالوا وقد قال ":ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة " قالوا فإذا كان موضع السوط خير من الدنيا وما فيها فما عسى أن يقال في الموضع الذي هو ما يسمى بالروضة ما بين البيت والمنبر فهذا كله من الجنة فهو مرجح إلى أن المدينة خير من الدنيا وما فيها هذا الدليل الآخر ، ثمة دليل دل عليه القرآن ، القرآن عندما تقرأ فيه ويقرأ فيه أي أحد حتى لو كان رجلا بسيط الفهم ويسمع قول الله جل وعلا { أن اشكر لي ولوالديك }{ وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا }{ قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم أن لا تشركوا به شيئا وبالوالدين إحسانا } ففهم الناس كلهم أن حق الوالدين عظيم لماذا ؟ لأن الله قرن حق الوالدين بحقه مع الفارق العظيم بين حق الوالدين وحق الله لكن الله قرن ما بين حق الوالدين وحقه جل شأنه ليعلم عظيم حق الوالدين ، نفس الأمر قاله جل وعلا في سورة الحشر {والذين تبوءوا الدار والإيمان } ومعلوم أن الدار بالإجماع هي المدينة والذين تبوءوا الدار هم الأنصار سكان المدينة الأولون فقال جل وعلا أن أهلها أخلصوا دينهم لله لأن الإيمان منصوبة لعامل محذوف دل عليه المعنى أي والذين تبوءوا الدار وأخلصوا الإيمان وهذا متفق مع سنم العرب في كلامها كما هو مشهور فجعل الله جل وعلا من مناقب الأنصار أنهم أخلصوا لله دينهم وأنهم سكنوا المدينة فجعل سكناهم للمدينة منقبة لهم فقال جل ذكره { والذين تبوءوا الدر والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم }الذي يعنينا بعد هذا العرض التاريخي من الذي ينبغي أن يفهم من القضية كلها أن تعلم أن الله جل وعلا قسم المؤمنين إلى ثلاث أقسام ولا يوجد قسم رابع:

فالقسم الأول : المهاجرون الأولون قال الله تعالى { للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم يبتغون فضلاً من الله ورضوان }وقال في التوبة { والسابقون الأولون من المهاجرين }ولا أنا ولا أنت من المهاجرين الأولين .

القسم الثاني : الأنصار قال الله { والذين تبوءوا الدار والأيمان من قبلهم }و يقصد به الأوس والخزرج ولا يتعداهم إلى غيرهم وقال

جل وعلا في التوبة { والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار } .
فلم يبقى إلا قسم ثالث : من لم يدخل فيه خرج من الإيمان قال الله { والذين تبوءوا الدر والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون في أنفسهم حاجة مما أوتوا يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون } انتهى القسمان ثم قال { والذين جاءوا من بعدهم } هذه يدخل فيها أنا وأنت إن خلصت النية { والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين بالإيمان ربنا ولا تجعل في قلوبنا غلاً للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم} فإذا اشرأبت أعناق الإنسان إلى الله حرمه قدراً إلى أن يكون من المهاجرين وحرمه قدراً أن يكون من الأنصار فلم تبقى إلا الثالثة من لم يقم بها لا حظ له في القرآن لأن الله قال في التوبة { السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار } قال بعدها { والذين اتبعوهم بإحسان} فالذين اتبعوهم بإحسان يفسرها قول الله { والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا }و القرآن عظيم ومن سنن القرآن أن المؤمن لا يقدم أحداً على نفسه لأنه لا يوجد أحد يقدر على عذاب الله حتى يقدم غيره عليه ولهذا قال الله عنهم { والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا }فينبغي للمؤمن أن يكون قلبه محباً لإخوانه المؤمنين يحب أبويه وجيرانه وأهل قرابته وكل مسلم من حيث العموم { ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا } ثم قال { ربنا إنك رؤوف رحيم} يوجد أيها المبارك رأفة ويوجد رحمة ، الرحمة قد يؤتاها الإنسان مع بلاء فهي ليست خيراً من كل وجه إنما هي خير بعاقبتها ، أما الرأفة فهي أشد الرحمة وهي خير من كل وجه ـ الرأفة خير من كل وجه ـ عندما يؤتى للقاضي بزانٍ غير محصن أو زانية غير محصنة يحكم عليهم بالجلد فنذهب نشهد ، هذا الحكم فإقامتنا للجلد على الزاني أو الزانية رحمة بهم لأن فيها تطهير لهما ولا يبقى لهما يوم القيامة شيء لأنهم عوقبوا وأقيم عليهم الحد فالحد وإن آذاهم الجلد إلا أنه رحمة بهم باعتبار المآل ولهذا قال الله { ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله } وما قال رحمة لأننا لو رأفنا بهم لما جلدناهم لأن الرأفة خير من كل وجه ولهذا قال الله { ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله } ولم يقل ولا تأخذكم بهما رحمة في دين الله لأن جلدنا إياهم رحمة بهما فالرأفة أشد من الرحمة .

والله جل وعلا من أسمائه الحسنى أنه رؤوف وهو يقول جل وعلا { إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعداً عليه حقاً في التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوف بعده من الله } الآن يخبر الله عن هؤلاء لأن الله تبارك وتعالى يشتري منهم النفس والمال والثمن العوض الجنة ، وأنفسنا وأموالنا في الحقيقة ملك لمن ؟ ملك لله والجنة على عين الحقيقة ملك لمن ؟ ملك لله فالله جل وعلا يشتري ملكه بملكه ـ يشتري ملكه بملكه ـ فأنفسنا وأموالنا الذي يشتريها هو مالكها أصلا وخالقها من قبل والجنة التي يعطينا إياها ثمن هي ملكه جل شأنه وهذا من دلائل رأفة الله جل وعلا بالعباد ـ هذا من دلائل رأفة ارب تبارك وتعالى بعباده ـ

هذا ما يمكن أن يقال حول قول الله جل وعلا { [illegible] } أول بيت بمعنى أول بيت للعبادة ثم بعده المسجد الأقصى ، وقد سئل [illegible] كم بينهما قال:" أربعون عاماً " والصلاة بالمسجد الحرام بمئة ألف والصلاة في المسجد النبوي بألف والصلاة بالمسجد الأقصى على الصحيح بمئتين وخمسين صلاة لأن النبي [illegible] خرج على الصحابة وهم يتدارسون فضل الصلاة في المسجد النبوي والمسجد الأقصى فقال [illegible] :" نعم المصلى هو ـ أي المسجد الأقصى ـ وصلاة في مسجدي هذا بأربع صلوات فيه " والحديث رواه الحاكم بسند صحيح فدل على أن الصلاة في المسجد الأقصى بمئتين وخمسين صلاة والعلم عند الله .

في خاتمة السورة قال الرب تبارك وتعالى :{ [illegible] } هذا من ثناء الله جل وعلا على الأخيار من عباده أنهم يتفكرون في خلقه ومن طرائق التفكير الشرعي الصحيح أن ينظر الإنسان في الخلق أياً كان فينظر نقصهم فيستدل بنقصهم الذي يراه على أن الكمال المطلق لله فإن رأيت الميت تقول ـ سبحان الحي الذي لا يموت ـ والعرب تمثل للجمال بالقمر والقمر يخسف ويذهب نوره حتى تعلم أنه مهما بلغ جماله فهو مخلوق والله جل وعلا وحده الخالق ، ونبينا [illegible] ملئ وجهه نوراً من النبوة ومع ذلك شج رأسه وكسرت رباعيته ودخل المغفر في وجنتيه وسال الدم عليه صلوات الله وسلامه عليه فإذا راء الصحابة ذلك عرفوا أن وجه الله وحده هو الوجه الذي لا يحول ولا يزول ، فالله جل وعلا له وحده الوجه

الأكرم والاسم الأعظم والعطية الجزلى ولا يبلغ مدحته قول قائل ولا يجزي بآلائه أحد جل ذكره وعز شأنه والمقصود { [illegible] } فالله جل جلاله منزه كل التنزيه عن العبث { أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لا ترجعون } ثم قال الله عن عباده الصالحين أنهم يقولون (سبحانك) وكلمة سبحانك لا تقال إلا للرحيم الرحمن جل شأنه ولا يقال عن أحد من الخلق كائنا من كان لا يخاطب بلفظ سبحانك أبداً هذه مثلها مثل لفظ تبارك لا يطلق إلا على الله ، سبحه هنا عباده الصالحون والله ذكر في القرآن أنه سبح نفسه قال جل ذكره { سبحان الذي أسرى بعبده } وتسبحه ملائكة قال جل ذكره { ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك } وذكر جل وعلا أن الرعد يسبح بحمده قال جل وعلا { ويسبح الرعد بحمده } وأخبر جل وعلا أن الجبال تسبح له { يا جبال أوبي معه} أي مع داود ، وأخبر جل وعلا أن الطير يسبح وأخبر جل وعلا أن أنبياءه يسبحونه قال الله تبارك وتعالى { فأوحى إليهم أن سبحوه بكرة وعشيا}

على هذا ذكرها الله جل وعلا بعد أن فصل في آية شملت لفظ (شيء) وشيء عند العلماء أعم العموميات قال جل وعلا { وإن من شيء إلا يسبح بحمده } هنا قال الله سبحانه { [illegible] } النار أعاذنا الله وإياكم منها مأوى الظالمين جعلها الله جل وعلا داراً لمن عصاه ولا ينجي من النار إلا ربها تبارك وتعالى وسؤال الله الإجارة منها ـ أجارني الله وإياكم منها ـ فهؤلاء الصالحون يستغيثون بربهم قائلين [illegible] } ثم ذكروا حالهم { [illegible] } هو النبي } [illegible] { [illegible] و[illegible] أعظم ما وعد الله جل وعلا عليه عباده الصالحين الجنة قال الله جل ذكره { كان على ربك وعداً مسئولا } أي أن عباده الصالحين يسألونه إياه الجنة ، والجنة دار أعدها الله جل وعلا لأوليائه الصالحين يستفتحها نبينا[illegible] ثم الصالحون الأمثل فالأمثل ..

ذكرنا أن الجنة أعظم موعود وعده الله جل وعلا عباده الصالحين قال جل ذكره { كان على ربك وعداً مسئولا } أي وعداً يسأله

عباده إياه وثمة أشياء رحمة بنا لم يجعلها الله جل وعلا في الجنة فالجنة لا موت فيها ولا نوم لأن النوم أخو الموت ولا حر فيها ولا برد ولا ليل ولا نهار ولا جوع ولا ظمأ ولا خوف ولا حزن وأهلها خالدون فيها أبدا كما أخبر ربنا تبارك وتعالى عن أهل طاعته بقول { خالدين فيها أبدا رضي الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشي ربه } قلنا يستفتحها نبينا [illegible] فيطرق بابها فيقول له الخازن من أنت فيقول أنا محمد فيقول الخازن أمرت أن لا أفتح لأحد قبلك فيدخلها [illegible] ثم الأنبياء ثم الصالحون من الأمم كلها على علم الرب تبارك وتعالى بهم وصلاحهم قال الله بعد تلك الآيات { [illegible] } هذا النزل ، النزل : أول ما يقدم للضيف من الطعام وقد دلت السنة الصحيحة على أن زيادة كبد الحوت هو أول نزل أهل الجنة ثم ينحر لهم ثور الجنة الذي كان يأكل من أطرافها ثم سئل [illegible] ما شرابهم عليها بعد إذ فقال :" عيناً فيها تسمى سلسبيلا " ثم قال الله جل وعلا { [illegible] } هذا من إنصاف القرآن فإنه قدر لبعض من كان على دين موسى أو على دين عيسى أن يدخل في دين محمد [illegible] وينبغي أن يعلم كدرس إيماني للنفس أن الهداية بيد الله يؤتيها الله جل وعلا من يشاء فأنت ترى بعض الناس يأتي من أصقاع الأرض إلى هذه البلاد ليعمل بحثاً عن الرزق وهو على ملة غير الإسلام فيكون قدومه خير كثير له فربما رزق الإسلام وهو لم يأت أصلاً من أجله وهذا يجعلك تعلم أن حقاً أن الهداية بيد الله وحده فالله جل وعلا من كرمه أنه يعطي العبد فوق ما يؤمل فبلقيس خرجت من أرض اليمن إلى أرض الشام تريد الحفاظ على ملكها ومع ذلك أكرمها الله جل وعلا بالإسلام وهي لم تخرج من اليمن لتنشده لكن لرحمة الرب تبارك وتعالى بها ذكر الله جل وعلا هنا أن من أهل الكتاب

من وفق لئن يؤمن بما أنزل إليهم في الأول وبما أنزل على محمد ﷺ ومن أشهر أولئك " عبدالله بن سلام " وهو يهودي كان يسكن المدينة فلما قدم النبي ﷺ المدينة جاءه قال فلما رأيت وجهه ﷺ عرفت أن وجهه ليس بوجه كذاب ثم سأله ـ أي سأل عبد الله بن سلام ـ النبي ﷺ أسئلة قال : لا يعرفهن إلا نبي فأجابه صلوات الله وسلامه عليه فآمن وبعض العلماء يقول أنه هو المعني بقوله جل وعلا {و شهد شاهد من بني إسرائيل على مثله } آية الأحقاف وعندي أن هذا بعيد لأن سورة الأحقاف مكية وعبد الله بن سلام إنما أسلم في المدينة لكن قد يجاب عن هذا بأنه ربما هذه الآية قد تأخر نزولها عن السورة كاملة ، ومنهم من يقدر له الإسلام مثل كعب القرظي وكعب هذا كان من بني قريظة فلما حكم النبي ﷺ قبل حكم سعيد بن معاذ في قتل بني قريظة أسلم كعب هذا وكان صغيراً دون البلوغ فأسلم وقدر له بعد ذلك أن ينجب ابن يقال له محمد ، ومحمد بن كعب القرظي أحد أئمة التابعين في علم التفسير رغم أنه ـ جده يعني ـ كان يهودي لكن كما قلنا الهداية بيد الله ومن دلائل ورع هذا الإمام أن مالاً كثيراً جاءه فجأة فتصدق به إلا قليلاً فعاتبه الناس قائلين له لو أبقيت هذا المال لولدك فقال لأنه يعرف الله حقاً قال: أدخر هذا المال لنفسي عند ربي وأدخر ربي لولدي " أو أجعل و ربي لولدي، أجعل هذا المال ذخراً لي عند ربي وأجعل ربي ذخراً لي عند ولدي وهذا من دلائل العلم ، والعلم بالله جل وعلا وحسن الظن به تبارك وتعالى فهؤلاء أشهر من آمن من أهل الكتاب قال الله جل وعلا { [illegible] } ثم ختم الله هذه السورة المباركة بقوله { [illegible] } فهذا إجمال بعد تفصيل لأن الصبر والمصابرة والرباط كلها داخلة في تقوى الله جل وعلا وأحسن ما قيل في تقوى الله" أن تعمل لطاعة الله على نور من الله ترجو ثواب الله وأن تترك معصية الله على نور من الله تخشى عقاب الله "

هذا أيها المباركون جملة ما يمكن أن يقال عن سورة آل عمران شرحناه أو قلناه إجمالاً بما يتناسب في المقام ، تارة نقف وقفات إيمانية وحين نقف وقفات علمية والله جل وعلا وحده هو الموفق ، وقد قلت إن النبي ﷺ قال :" اقرأوا الزهراوين البقرة وآل عمران " فيحسن بالمؤمن أن يكون له عناية عظيمة بهاتين السورتين

الكريمتين يقرأهما ويتدبرهما ويقوم الليل بهما فهذا من أعظم المنجيات وأجل الطاعات ، جعلني الله وإياكم ممن يستمع القول فيتبع أحسنه.

هذا ما تيسر إراده وأعاننا الله على قوله وهو وحده الموفق ومنه القبول والله هو المستعان
وصلى الله على محمد وعلى آله
والحمد لله رب العالمين

****

تفريغ أختكم في الله
أم هتوف